أيمن الصياح

لادن

قصص الخيال العلمي

كان "مايزر" الروبوت الظريف بهيئته وتصرُّفاته المُحاكية للبشر في أدقِّ التفاصيل يغرز أصابعه المشعّة بلون أرجوانيّ في غرفة اللّوحات الإلكترونيّة المسؤولة عن سلامة برنامج "تخاطر" عندما اكتشف سرطانًا إلكترونيًّا ينخر المجال الافتراضيّ بشراهة. لم يتمكَّن الرّوبوت المغاربيّ من تحليل أنماط البيانات المستحدثة والمريبة ولا من إعطاء التّقرير الشّافي في الغرض وبالتّالي لم يكن قادرًا على اتّخاذِ القراراتِ الفعّالة رغم التّحسينات الأخيرة على عقله الافتراضيّ قدرت كلفتها بثلاثة مليار كوين إلكترونيّ مغاربيّ، مبلغ كفيل بتجهيز مستشفى جامعي متنقل ينتفع به جميع الطّلبة المغاربة الّذين تذمّروا مؤخّرًا من غلاء المصحَّات الخاصّة في المدن الكبرى كسوسة وعنّابة والدّار البيضاء حتّى أنّ المنحة الدّراسيّة لا تكفي لتغطية تكاليف جلسة واحدة من العلاج بالأكسجين عالي الضّغط. اتّهمُوا الحكومة ببعزقة المال في الخردة (يقصدون الرّوبوت مايزر)، توعّدوا بالتّصعيد فتبنّى موقفهم شقّ كبير من المجتمع المدنيّ أثقلهم وزنًا الجامعة العامّة للتّنمية المستدامة.

تعمَّقتِ الأزمة بين الطّلبة والرّوبوت المغاربيّ المصنَّف كأذكى روبوت في العالم عندما تواترت العواصف الجيو–مغناطيسية بصفة غير مسبوقة والّتي كان لها تأثير خطير على الجهازين العصبيّ والمناعيّ لفئة الشّباب دون سواها _حسب الدّراسات الأخيرة لمجمّع علميّة_ هذا بالإضافة للتقلُّبات المناخيّة الاستثنائيّة لمنطقة المتوسّط والأطلسيّ حيث تصل درجاتُ الحرارة في بعض المناطق كتونس والجديدة للخمسينَ درجةً أثناء النّهار بينما قد تهبط أثناء اللّيل حتّى السّتة درجات مئويّة في نفس اليوم.

***

كانت العالمة الجزائريّة "عليسة مسكيني" تقف أمام منزل والدتها تتأمّل في صمت مرورها البطيءِ في حديقتها الّتي كادت تصبح جنّةً على وجه الأرض، حتّى اختفت الأخيرة داخل بيت زراعيّ مكيَّف ذي شكل يشبه السفنكس، اقتحمت عليسة المكان الهادئ بهدوء أشدّ لتفاجِئَ والدتها وترعبها بعاداتها السّيِّئة في المزاح، لقد اشتاقت لها فعلًا أيَّما اشتياقٍ، اشتاقت لدفء حضنٍ هجرتهُ منذ ستة أشهر عملت خلالها أربعة عشرة ساعة في اليوم ودون إجازة أسبوعيّة

تلبيةً لنداء الواجب في ظروف استثنائية ودقيقة ترفض السّكون والاطمئنان.

كانت تتقدّم بخطوات اللُّصوص عندما رنّ صوتٌ داخل جمجمتِها يقول: "إنّ الأمر جللٌ، حياة الكثير من النّاس في خطر مُحدِق، يجب أن تعودي إلى نابل على الفور. لا يمكنُني إطْلاعك على المزيد"

–يمكنني التّعامل مع مايزر من مكاني ثمّ إنّك دائمًا تهوّلُ الأمور يا بسَّام والأمر عندك دائمًا جلل، قل إنّك اشتقتَ لي والسّلام.

–رئيس مجلس الوحدة المغاربيّة الجديد أمامي مباشرة ووزير الدّاخليّة يبحلق في وجهي كأنّه وجد مفجِّر برج مكناس العظيم.

كانت السّيدة زهرة تهمُّ بالخروج من البيت المكيَّف فاختبأت عليسة خلف شجرة "دم الأخوين" المهجَّنة تتأمّل والدتها تنسحب من الحديقة وتدلف داخل المنزل.

***

استقلّت عليسة قطار الهايبرلوب القديم من جيجل إلى عنابة ثم استقلّت كبسولة كموميّة من عنابة إلى نابل، سجّلت احتجاجا صوتيًّا دام دقيقةً كاملةً لتنتقد تأخيرًا مدّته ثانية ونصف احتوى عبارة غير لائقة أو ربَّما اثنتين باللُّغة الأمازيغيّة.

وصلت للمجمَّع وهي تبدِّل الخطوات ببطء بينما تستمع لسمفونيّة حزينة بطلها كمان إلكترونيّ مع خلفيّة صاخبةٍ جدًا، كانت مندمجة لدرجة التوحّد، عندما رفعت رأسها وجدت الطامة والعامّة حول تمثال الأبوين المؤسسين والصحفيّون يطوّقُون المكان برُمّته ويملؤونه ضجيجًا وكان بينهم خيّام بن عثمان رئيس مجلس الوحدة المغاربيّ والممثِّل السنيمائيّ سابقًا، يستثمر وسامته الاستثنائيّة وابتسامته السّاحرة ليتملَّص من كلّ سؤال محرج وخاصة تلك الأسئلة العلميّة الّتي بدا أنّه بريءٌ منها براءة الذّئب من دم يوسف. كانت عليسة تعلن صراحة أمام زملائها أنَّها مستعدّةٌ للزَّواج من السَّيِّد خيّام وأنَّها سوف تحرمه من العمل وتحبسه في المنزل لكنّ علاقتها بالصحفيّين كانت تشبه علاقة القطط بالروبوتات المنزلية وقد عهدوا مواءها السّليط في عديد المناسبات.

بعد تحيين روبوتها بذلك المبلغ الهائل _خاصّة وأنّ التّحيين شمل إضفاء بعض الصّفات البشريّة على الرّوبوت منها روح الفكاهة_ اندلق الحبر الافتراضيّ السّاخر على شبكات الهولوغرام بكاريكاتيراتٍ نالت من الرّوبوت وصاحبته صاحبة الكبرياء الّتي لم تكن تحتمل النّقد قيد أنملة فما بالك بالقدح والسّخرية والتّشكيك.

لحقتها العدسات وهي تركض بسرعة الأرنب البريّ الشرير المرسوم في قبعتها لتفلت من الصّحفيّين، دخلت المبنى وأوصدت الباب فوجدت صديقها بسّام الشّاب الأسمر الطّويل جدًّا ذا العينين الزّرقاوين وبرفقته مايزر.

أطرقت ساخرة "عمتَ مساءً سيّدي المسؤول رقم 2 عن السّلامة الافتراضيّة _يا بو قلب_ ألا يمكنني الاعتماد عليك في شيء؟"

قال برطانته البيريطانو–موريتانيّة المميّزة:

–ما الّذي فعلته للتّوّ! ستعرّضين نفسك للمتاعب من جديد!

–تعّودت بذلك، لا بل أدمنت ذلك، هيّا أطعمني كبد الموضوع...دون مقدّماتك المطوَّلة، بسّام أرجوك! اعفِني منها!

–الأمر جلل!

–لا إله إلّا الله

–لقد اكتشف مايزر سرطانًا افتراضيّا تمكّن من منظومة تخاطر بنسبة غير معلومة.

–غير معلومة! هل عجز مايزر عن مدّكم بالنّسبة والمصدر!؟

–الأمر جلل!

–هذه المرّة، هو فعلا كذلك.

عاود مايزر غرز أصابعه في لوحة القيادة، نُبّهَ لوجود السّرطان ثانيةً وأشعّت عيناهُ بوميضٍ أحمرَ دون أن يقدّم أيّ جديد.

قال بسّام: "كان أنجع عندما كانت أصابعه موصولة بالألياف الضّوئيّة، عذرًا صديقي مايزر!"

–بربّك بسّام، هل تعتقد أنّ لأشعة اللّيزر علاقةً بالأمر!؟

–كنت أتحدّث عن نجاعة مايزر.

–اللّيزر أسرع وأنجع من الألياف الضّوئيّة، الأمر لا يحتاج لفلسفة.

فجأةً دخل وزير الدّاخليّة رفقة شابّ حسن القسمة، ذي فكٍّ قويٍّ ونظرة متحدِّية، مزهوٍّ فخور يُدعى جهادًا، كانت النّرجسيّة تقفز من وجهه للأبصار تعلن عقدة التّفوّق بإسهاب، تكلّم باستعلاء قائلًا: "سيّدي الوزير، يجب أن تمنحنا مدخلًا لجميع بنوك معلومات الوزارة، لكي نقوم بالتّحليلات التنبّؤيّة اللّازمة عسانا نُوَفَّقُ في عرقلة السّرطان الافتراضيّ قبل أن يتوغّل ويتغوّل"

–يستحيل...يستحيل!

–سوف أراسلُك كتابيًّا سيّدي الوزير، على كلّ واحد أن يتحمّل مسؤوليّته عندما تسير الأمور نحو الفوضى العارمة.

فجأة دخل رجل مقوّس الظّهر ذو لحية بيضاء طويلة، بدا أنّه يحمل هموم العالم فوق كتفيه لكنّه قال بلكنة صارمة: "سيّد جهاد صحيح أنّك مكلَّف بالخوارزميّات والتحليلات الإرشاديّة

والبروتوكول لكنّك لستَ مؤهَّلًا لاتّخاذ مثل هذه القرارات...عذرًا سيّدي الوزير، تفضّل معي إلى مكتبي لو سمحت"

كان بسّام واقفًا في مكانه طيلة ذلك الزمن في وضع الصّدمة، لكنّ وجهَه تلوَّن فجأةً بقزح من الغضب والقلق والحيرة.

قال بصوت جهير وهو يرفع يديه للسّماء: "يا جماعة لقد وصلتني للتوّ رسالة من الوحدة الخاصة في العراق، يقولون إنَّهم اكتشفوا السّرطان، يُدعى "لادن" لقد استعانوا بالأرشيف الورقيّ"

قال وزير الدّاخلية "لادن! ڤيروس ضربَ أجهزة الأندرويد سنة 2035، انتشر كالنّار في الهشيم، تمَّت السّيطرة عليه بسرعة أو ربّما انسحب، لكنّه تسبّب في أضرار نفسيّة أكثر منها ماديّة"

فرك الدّكتور عدنان فروة رأسه بعصبية وغمغم: "قام لادن في ذلك الزّمان بزرع روابط وكمائن تقود الناس نحو الدارك ويب، أطلق جيوشًا من الذّباب الأزرق على صفحات التّواصل الاجتماعيّ يثيرون الفتن بين النّاس ويؤجّجون الطّائفيّة ويغلقون الصّفحات

الحكوميّة، كدنا نرجع للدّكتاتوريّة سنة 2035 بسبب القوانين الوقائيّة المتَّخَذَة ضدَّ لادن"

سألت عليسة الرّوبوت عن لادن فأجابها: Ladon هو وحشٌ أسطوريّ لديه 100 رأس.. كلّ رأس يتكلّم لغة مختلفة.. كان يعيش في الصّحراء اللّيبيّة، تحدّث عنه المؤرّخ الإغريقيّ الشّهير هيرودوت، يقال إنه كان يحرس شجر_"

قاطعته:

-مايزر واصل البحث ولا تشرد بنا إلى ما قبل 1990.

-آسف لا توجد معلومات أخرى.

تساءل وزير الدّاخلية بصراخ شديد: "كيف لا يستطيع روبوت أنفقنا لتطويره أكثر من عشرين فالمئة من ميزانية البحث العلميّ أن يجد معلومة تاريخيّة متوفِّرة للجميع في محركات البحث البدائيّة!"

تعرق جبين عليسة على الفور لكنّها أطرقت بثقة: "مستحيل! مايزر أفضل وأدقّ بأوكتليون مرّةً من محركات البحث مجتمعةً"

قال بسّام وهو يرفع يديه للسّقف مرّة ثانية: "يا جماعة، العراق تشهد أعمال عنف، جميع المشاركين في هذه الأعمال من الصمّ والبُكم!"

قال المدعوّ جهاد: "العمليّة واضحة، السّرطان لادن يحرِّف الخواطر ويزرع الفتنة، التخاطر أغنى الصم والبكم عن تعلّم لغة الإشارات...لكنْ لماذا اختار العراق بالذّات! ربَّما لأنّ العراق بصدد التّعافي، يا له من سرطان لعين"

قال الدكتور عدنان المصري وهو يغمر كتفي عليسة براحتيه الواسعتين: "أنا عارف إنك تعبتي كتير السّتة شهور دول بس أنا عايزك تخرّجي السوبر وومن لي جواكي وتنقضينا مالوحش الإغريقي السخيف ده، روبوتك أهُه دقّقي في كل حاجة، المركز وعمال المركز ومعداتو كلّها تحت تصرفك"

أجابته بلهجته المصرية وهي تؤدي التحية العسكرية: "طيب يا دكتور، تحت أمرك"

اطمأنّ الدكتور عدنان عندما شاهد وجه عليسة المحايد في جميع المواقف على حاله لا يتغير فقال مستعجلًا الوزير: "سيّدي تفضّل معي إلى مكتبي...من هنا من فضلك"

انصرف كلٌّ لشأنه، بقيَ البهو فارغًا تشوبه أصوات خافتة كهمسات الشّياطين.

***

رنّ هاتف عليسة الهولوغراميّ الّذي لم تستعمله منذ سنوات، ارتسمت الشّاشة الضّوئيّة أمامها بصورة لرجل ستينيّ يعصر ذقنه بإصبعين ويحدِّق في الكاميرا بثقة على طريقة أدباء أيام زمان.

–عليسة، كيف حالك؟ لو تعلمين كم اشتقت لك!

–بابا، سُررت باتّصالك لكنّني لن أمنحك أكثر من عشرة دقائقَ...مفهوم!؟

–آآه ليتك كنتِ سيئة في الدّراسة مثل شقيقتك، الشّقيّة تجوب أصقاع العالم وتُسيل لعابنا بالمأكولات الشّهيّة وتحصد أضعاف ما أحصده أنا الدّكتور في الجامعة، ليتني كنت فتاة جميلة يا أخي...أمّك كيف حالها!؟

صمت

–عليسة، هل انتهت الدّقائق العشر!؟

–ما زال لديك خمس دقائق كاملة.

–ما هي حكاية لادن!؟

–كنت تسأل عن أمّي!

–أمّك، لادن...كلّها وحوش.. هه

–ليس من اللّباقة أن تتحدّث عن زوجتك السّابقة بهذا الشكل، كنت سأمنحك خمسة دقائق إضافية لكنّي الآن خصمت واحدة أو ربما دقيقتين.

–هاي.. تعلمين أني أمزح كالعادة، على فكرة والدتك ستكون دائمًا بخير فهي تقوم بتهجين الفاكهة والخضر ثّم لا تأكل سوى من حديقتها ما لا يشوبه هرمون صناعيّ.

–أبي أخبرني! أنت كأستاذ تاريخ، ماذا تعرف عن لادن؟ ربّما فاتنا شيء يوجد على الورق ولا يوجد على_

قاطعها والدها بانفعال:

–عليسة! أنا أستاذ مختصّ في علم النّفس المعرفيّ! أنت مرهقةٌ جدًّا بالفعل، تصبحين على خير.

كأنّها اقتنعت بكلام والدها، خارت قواها فجأةً واستسلمت للنّوم فوق مكتبها تاركةً مَايْزِرْ في وضع مراجعة وتحيين.

استيقظت التّاسعة والنّصف، فتحت النّافذة العازلة للصّوت فغمر ضجيج عظيم الغرفة الهادئة، كان المحتجُّون يطوِّقون المكان رافعين شعاراتِ التّنمية المستدامة، ربّما هو أكبر تجمُّع للأحزاب الخضر عرفه المغرب العربيّ الموحّد منذ تأسيسه، استغلّ بعض مثيري الشّغب انعدام الحراسة على السّور الغربيّ فنطّوا منه إلى الساحة

وحطّموا تمثال الأبوين المؤسّسين لمجمّع "علميّة" ورغم التّدخُّل السّريع لوحدات الشّرطة المدجّجة بالرّوبوتات والكلاب وعبوات غاز أبو ضربان النتنة لم يكن فضّ الاحتجاج هيّنا على الإطلاق.

بعد ساعة ونصف خرج الدّكتور عدنان المصري على القناة الحكوميّة الأولى، ذرف دمعةً ثقيلة ساخنة انزلقت بسرعة على بشرته السّمراء القاسية، أطرق بعد أن أزاحها عن شاربه بحركة عصبية:

–كم هو مؤلم أن نضحّيَ بالنّفيس من أجل الآخرين ونزرع من أجلهم البذرة الطيّبة، نسقيها من خزّان وقتنا الفاني وعرقنا ودمنا ثم نحصد الشّوك والحامول، لست أتحدّث عن نفسي بل عن الأبوين المؤسّسين، أكيد أنهما الآن في عالم أفضل وأكيد أنهما لا يحتاجان لتلك التّماثيل، بل نحن من نحتاجها لنذكّر أنفسنا بالتزاماتنا تجاه الوطن وتجاه البشريّة جمعاء...تذكير لأصحاب النّفوس الشّريرة، سنة 2035 وأغلبكم حينها لم يولد بعد، أسّس لاعبا كرة القدم بيرم القابسي والفاهم بوعلام هذا المجمَّع العلميّ على أنقاض مجمَّع سابق محقَهُ تسونامي بطم طميمه.. أنفق الأوّل 90% من ثروته أمّا الثّاني فقد تبرع بثروته كاملة بعد أن اكتشف مرضه العّضال، احتضن هذا المجمّع أيتام

تسونامي وعلّمهم وصنع منهم الطّبيب والطّيار والمحامي وكان في نفس الوقت منارة يقصدها الباحثون والطّلبة المتفوّقون من كلّ أرجاء إفريقيا والعالم العربيّ. كنت طفلًا حينها وأتذكّر أن والدي ذرف دمعة غالية عندما عرضت جنازة بوعلام المهيبة على شاشات التّلفزيون، راقبت والدي يوم وفاة جدّي، كان حزينًا بعيونٍ جافّة...بيرم القابسي عمل كأستاذ رياضة داخل المجمّع ولم يبارح المكان حتّى أُصيب بباركينسون، أنتم لا تعلمون ماذا يعني باركينسون لأنّ هذا المجمّع جعل هذا المرض يبدو كحمّى شتويّة عابرة، في هذا المجمّع زرعنا أوّل مشبك عصبيّ من الألياف الزّجاجيّة في عقل بشريّ.. طوّرناه شيئًا فشيئًا ليصبح مسؤولًا عن منظومة تخاطر.. ثمّ طوّرناه بفضل الرّوبوت مايزر فتمكّنّا من القضاء على أغلب السّرطانات اللّعينة عبر تفعيل الاتّصال بين العقل والخلايا الميّتة ومضاعفة العمليّات العصبيّة الاستكشافيّة، الأمر في تلك الأيام كان يشبه الخيال العلمي.

ما زال الدكتور عدنان يفرغ شحنات غضبه على طريقة قارب قراصنة مجهز بالمدافع ذات اليمين وذات الشّمال عندما سُمعت تلك الحشرجة المقيتة في الهواء.

انقطع البثّ.

***

–جهاد! هل توصّلتَ لشيءٍ ما؟

–أجل يا سيّدي، العديد من النّاس اتّصلوا بمركز الشّرطة ليعلنوا أنّ بيوتَهم مسكونةٌ بالأشباح.

–وكيف علمت ذلك! السّيّد الوزير لم يمنحنا مدخلًا لبنوك معلومات الوزارة، لا تقل لي إنك...!

–مرغم أخاك لا بطل، النّاس صاروا يبصقون على العلم يا سيّدي ومعظمهم عادوا يستشيرون العرّافات والنّفّاثات في العقد، لا لن أسمح بالعود إلى الحضيض...أبدًا، قطعت على نفسي هذا الوعد وأنا أغادر بن غازي.

خبّأَ الدّكتور عدنان وجهه بلحيته الطّويلة ثمّ أطلّ من بين الشّعيرات الملبّدة مبرِقًا عينيه قبل أن يتساءل:

–هممممم...طيّب، إلى ماذا توصلت يا مغامر!؟ لا أخفيك سرًّا، أنا عن نفسي ذُعرت يومها بشدّة عندما سمعت تلك الحشرجة المرعبة، لم أشكّ في وجود أشباح قطُّ لكنّي ظننت أنّني...

قاطعه جهاد قائلًا:

–ظننت أنّك أُصبت بتقلّص في الجمجمة.

–أجل، فأنا كما تعلم لم أركّب مشبكا عصبيًّا صناعيًّا ولذلك فكّرت بأنني خارج مجال الوغد لادن، فكيف فعل ذلك!؟

–يقوم بتسجيل همسات وكلمات مبهمة على موجات مغناطيسيّة ثمّ يستفزّها بموجات صوتيّة تشبهُ تلك الّتي كان يصدرها الحوت الأزرق المنقرض.

–عظيم يا جهاد عظيم! ...لكن قل لي.. هل وجدت حلًّا لنخلِّص النّاس من هذا الوسواس القهريّ!؟

–لديّ حلّ، لكن...أريد أن أشرف على الفريق...أقصد أن أترأَّسَه، لا يمكنني العمل تحت إشراف عليسة فهي ساخرة ومتهكّمة وسليطة اللّسان.

–هي كلّ ذلك فعلًا، لكنّها أفضل مخترعةٍ لدينا...كما أن قلبها في بياض النرجس، وقد كانت دائمًا تُثني على الإضافات الّتي تقدّمها أنت للمجموعة وهي تعتبرك عنصرًا لا يمكن الاستغناء عنه.

رفع جهاد شعره الأسود المنسدل على جبينه وهمّ بالمغادرة وهو يغمغمُ بحنق: "إذًا ستمنحها شرف قيادة المجموعة كالعادة بينما أتكفّل أنا بتقديم الحلول والكنس خلف صاحبة الجلالة الوقحة في كلّ مرّة"

–بل أنا من سيشرف على المجموعة هذه المرّة وسوف أحرص أن يتكتّم الجميع عن فعلتك السّوداء...وإلا سوف نتقاسم عقوبة الأشغال الشّاقة، هل تعلم أنّ وزارة الفلاحة عادت لاستخدام الأسمدة الطّبيعيّة!؟ وأنّ المساجين يتكفّلون اليوم بجمع البراز البشريّ والحيوانيّ!؟ _ابتسامة_ لذلك يجب أن يُطمر هذا السّرّ في جبّ يتناوب على حراسته الشجاعة والأمانة، هل هذا مفهوم!؟

–طيب، سيّدي العميد

–يمكنك الانصراف، سيّد جهاد

***

كان مجمّع علميّة يغلي كخليّة النحل بأصوات الآلات، الجميع منكبٌّ على شيءٍ ما وكان الدّكتور عدنان يجوب مختلف المختبرات والمصالح ليشحذَ العزائم عندما انهار وارتطم رأسه بالأرضيّة وسال الدّم من معطسه.

قام طبيبان بنقله لقسم الأشعّة وقد ثبتت بعد ذلك إصابتُه فعلًا بتقلُّص في الجمجمة.

اقتحم جهاد غرفة واسعة وهتف:

-كيف حالُه يا دكتور هاشمي!؟

-الضّغط الرّهيب على دماغه تسبب في غيبوبة...المشكل أنّنا لم ننجح إلى حدّ الآن في علاج حالة واحدة منذ ظهور المرض أي منذ سنتين...الموت حق، أقصد الموت محقّق.

-ربّما كان للأمر علاقةٌ بلادن.

-كيف ذلك يا جهاد!؟

–سوف أخبركم بكلّ شيءٍ بعد الاجتماع

–طيب من ينوب العميد؟

–سوف ينعقد مجلس في الغرض

فجأةً دخلت عليسة وروبوتها، قالت وهي تضع يدها على كتف جهاد: "أنت الأجدر يا أخي، لماذا نخسر الوقت؟ العميد في حال يرثى لها ونائبه متّهم في شبهة فساد ولا يوجد "خُطّة ج" لسدّ الشّغور...لقد اقترحت اسمك على جميع الأقسام والجميع موافقون.

–شكرًا زميلتي على هذه الثّقة! لكن...

–لا يوجد لكن، أرجوك! أمامنا منعرج يُخفي هوّة ساحقة والمقوَد بين يديك، ليكنِ اللهُ في عونك.

***

داخل قاعة "ابن رشد" الكرستاليّة المشعّة الّتي فُتحت بعد أن تمّ الاستغناءُ عن غرف المحاكاة وجميع الغرف الافتراضيّة، كان رؤساء الدّائرات والمصالح والأقسام يتساءلون بقلق عن حال الملك

القديم وينتظرون الملك الجديد حتّى دخل الأخير بخطوات بطيئة فكأنّ المسؤوليّة الجديدة وقعت على كتفيه كصخرة صمّاء، اختفت الثّقة المفرطة والغرور من قسمات وجهه وتفشت الحيرة في ملامحه كحريق.

تناول شربة ماء ثم أطرق بعد أن استجمع شجاعته ورتَّب في ذهنه بعض الأفكار المبعثرة:

–أوّلًا يؤسفني أن أنقل لكم خبرين حزينين، الأوّل يتعلق بصحّة السّيّد العميد عدنان المصري الّذي وصل إلى حالة حرجة قد تضطرّنا لاستخدام بروتوكول "الموت الرّحيم" والثّاني يتعلّق بنائبه السّيّد "رجب طوّاف" الّذي اعترف منذ حين بكلّ التّهم الموجَّهة إليه عبر راديو المجمّع الرّسميّ.

عمّ التّململ أرجاء القاعة حتى صار الهمس يشبه "الطّنين"

قاطعه جهاد بصوت جهير: "أجل يا سادة، المصائب كما عهدناها لا تأتي فُرادى وسمعة المجمّع على المحكّ وثقة الناس في العلم تتزعزع يومًا بعد يوم، بل الصّحافة في أوروبا تشبِّهنا اليوم بالكنيسة في العصور المظلمة، بعد كلّ ما فعلناه من أجل البشريّة خلال زمن

الأوبئة والكوارث...حسن نحن في النّهاية لم نقم سوى بواجبنا، من الجّيد أن نذكّر أنفسنا بذلك"

فجأةً بدأ بعض الحضور يضربون على الطّاولات ويهتفون باسم المجمّع «علميّة...علميّة"

انضمّت جميع الحناجر وارتفع الحماس وعندما سكت الجميع هتف مايزر "علميّة" مثيرًا ضحك الجميع.

أطرق جهاد مجدّدًا:

سوف نقسّم أنفسنا لثلاث فِرَق، سأشرف بنفسي على الفريق الأوّل، ستكون مهمّته رصد كلّ التغيُّرات وتحليلها فوريّا بالاعتماد على علاقة مباشرة مع المواطنين والوزارات وكذلك مع شركائنا في الدّول العربيّة والعالم...سوف نبحث عن حلول سريعة بالتّنسيق مع الفرق الأخرى، الفريق الثّاني هو فريق الإعلاميّة ستشرف عليه الزّميلة عليسة مسكيني سيواصل محاصرة السّرطان المعلوماتيّ واستدراجَه إلى كمين مطبق أعدّه زميلنا العظيم صاحب اللّكنة المميَّزة.

كان يقصد بسّام وربّما كانت المرّة الأولى الّتي يستعمل فيها أسلوبَي المزاح والإطراء منذ أن وصل للمجمّع قادمًا من بن غازي المنتصرة على المتطرّفين بعد الكثير من العناء والدِّماء، الشيء الّذي جعله يرتبك بشدّة.. تناول شربة ماء سُمع مرورها البطيء العسير في حلقه المختنق عبر النّانو ميكرو قبل أن يهتف من جديد:

الفريق الثّالث سوف يشرف عليه مايزر وسوف يقوم بمحاربة موجات الهلوَسة عبر رصد الأماكن عالية الكثافة المغناطيسيّة ومن ثمّ التّشويش على الموجات الصوتيّة الّتي يرسلها لادن في شتّى أنحاء العالم، لن تضطرُّوا للتّنقُّل، سوف يقوم مايزر باستشارة الأقمار الصّناعيّة المتاحة لأن أغلبها معطل بسبب العواصف الجيو-مغناطيسية وكذلك مجسّات الزّلازل فهي تحتوي على معلومات تخصّ الحقول المغناطيسيّة والكهرومغناطيسيّة ثمّ سوف تقومون بالتّنسيق مع سفرائنا في شتّى الأماكن لإطلاق تسجيل صوتيّ سوف نمدّكم به وسوف يقوم بتكسير موجات لادن على الفور، الأمر قد يبدو بسيطًا على فكرة لكنّه ليس كذلك.. لن أذكّركم بأنّ هذه القاعة مؤمَّنة

ومعزولة ولن يستطيع حتّى الجنّ الأزرق ولوجَها لكن ما إن تخرّجوا منها حتّى تنهّجوا الصمت، اعملوا في صمت يا سيدات ويا سادة.

أشار بحركة مهذّبة من رأسه لعليسة فقالت الأخيرة: "سوفَ نتحدّث بلغة الصُمّ والبُكم كما ورد في البند الأخير من قانون الحالات الخاصّة والطّارئة وسوف نوافيكم بالبروتوكولات والتّحيينات عبر الإشارات الخاصّة كذلك"

انفضّ الاجتماع وغادر الجميع عدا جهاد وعليسة ومايزر

***

شهد المغرب العربيّ خلال الأسبوع الثّاني من شهر مارس لسنة 2090 أحلك أيام منذ تأسيسه، الأنانيّة والانفعاليّة الشّديدتان حاضرتان بقوّة كالعادة، كان النّاس يتهافتون على المستشفيات لينتزعوا المشابك والألياف الزّجاجيّة فلا يجدون العدد الكافي من الجراحين، تتالت الاعتداءات على الإطارات الطبيّة وشبه الطّبيّة. بينما اعتبر البعض الآخر بأنّ لادن كائن سرمديّ جاء ليعاقب البشريّة فلجأوا للذّبح والنّذور، كما اتّفق بعض العلماء المسيحيّين

والمسلمين في ملتقى السّلام للأديان بأنّه المسيح الدّجّال دون ريب بينما اعتبر البوذيّون أنّه غضب الطّبيعة الأمّ ولم تحد الكنيسة الساينتولوجيّة عن تصريحاتها القديمة واعتبرته غزوًا من الكائنات الفضائيّة وطالبت الأمم المتّحدة بالاستسلام لضمان استمرار كوكب الأرض.

***

رغم أن المغاربة بتضافر الجهود مع جمعيّة "بويان سلات" الهولنديّة نجحوا في تجميع ورسكلة ستّين مليونَ كلم^2 من الفضلات البلاستيكيّة المتراكمة في المحيط الهادي.

صهروا البلاستيك واستعملوه بدل الزّفت لتعبيد الطّرقات، شيّدوا منه المباني، استعملوا قدر الإمكان خشب "البامبو" كبديل صديق للطّبيعة، جعلوا من الأثاث المصنوع من الفضلات موضة العصر. رغم كلّ هذه النّجاحات والتّضحيات مازالت الجامعة العامّة للتّنمية المستدامة تصعّد وتلتجئ للعنف في بعض الأحيان، رفع رئيسها المنتخب الجديد "علوان فلاون" شعار وصف بأنّه طويلٌ مملٌّ وركيكٌ "إذا الإنسان يومًا أراد أن يستمرّ فلا بدّ للأنظمة الحاليّة أن

تندثر ولا بدّ للاقتصاد أن يتقهقر ولابدّ أن نعود للزّراعة وتربية الماشية بالأساس"

في أوّل لقاء صحفيّ استغلّ فلاون أقرب ميكرو ليصدح "مجمّع علميّة أصل الدّاء والوباء، ما ننفقه على هذا المجمّع من مال وجهد لو أنفقناه في تطوير الزّراعة وتخليص الأرض ممّا يخنقها لكنّا اليوم في نعيم، صدّقوني السرطان لادن ليس سوى مؤامرةٍ حَبَكَ تفاصيلَها الدّكتور عدنان المصري الصّندوق الأسود للمجمّع وصاحبته سيئة الطِّباع والذِّكر عليسة مسكيني لكي نكون دائمًا تحت رحمة المجمّع وروبوتات المجمّع، تفووه على هذا المجمَّع الحريص على تحويل البشر الى روبوتات بقدر حرصه على تحويل الروبوتات الى كائنات بشرية، لن تنطليَ علينا خدعكم منذ اليوم، قد يشهرون بعد أيام نبأ وفاة الدّكتور عدنان، سوف تكون مسرحيّة سيّئة من إخراج الفقيد وسترفق بأغانٍ حزينة وترّهات لاستعطافكم واستحلابكم فاحذروا ما يُحاك لكم وتحلّوا بالإيمان بقضايا الكوكب وكونوا شرسين ومدمّرين فاليوم هو يوم الفوضى الخلّاقة، لابدّ للّيل أن ينجلي...نموت نموت ويحيا كوكب الأرض"

***

كانت عليسة تحتسي منقوع السّلفيوم العتيق في المطعم الجامعيّ بينما يفترس بسّام نصف رطل من الكينوا ولم يمنعْه فمه الممتلئُ من السّخرية من صديقته قائلًا برطانته المعتادة:

–إذًا .. كنت طيلة هذه المدّة تطبخين المؤامرات الكونيّة على نار هادئة، كنت أعلم ذلك على فكرة لكنّني _

–بسّام أرجوك! الأمر جلل بالفعل هذه المرّة

–كنت سأقول ذلك ثمّ_

–لا تقل شيئًا، أنت تتكلّم بفم ممتلئ وأنا أعاني من "ميزوفونيا" كما أنّني اليوم مريضة بطريقة ما

–هل تريدين أن نتحدّث بالموضوع!

–لا أريد أن نتحدّث بأيّ موضوع، أنا مثلكم على فكرة أشعر بالإرهاق وبالألم النّفسيّ والجسديّ وبالشّوق إلى عائلتي.

غادرت المكان منهارة باكية فدلّ الانطباع الّذي رُسِم على وجه الموريتانيّ أنه شاهد للتّوّ أغرب شيءٍ واكبه في حياته، فقد كان يصف عليسة بتمثال ساخر وذكيّ يجيد إلقاء النّكات وكان يعتبر عقلها سدًّا منيعًا لا تخترقه العواطف ولا تؤثّر فيه التّغيّرات الهرمونيّة.

بينما كانت عليسة تغادر المكان ارتطمت ببزّة بيضاء يسكن داخلها السيد جهاد 15 ساعة في اليوم على أقلّ تقدير، لم يصدّق الأخير عينيه وهو يشاهد شواجن من الدّمع الكحليّ تنساب على وجنتَي عليسة الزّهريتين، وبما أنّهما كانا في وضع يشبه العناق فقد زاد ذلك من صدمته وذهوله لكنّ راحتَيه الواسعتين غمرتا كتفيها بالكامل والتصقتا بمغرّة الصّدمة التصاقًا جميلًا.

رفعت عليسة وجهها فاكتشف الدّكتور الأوردة الرّقيقة منفجرة في بؤبؤ عينها. أراد أن يعبّر عن قلقه وتعاطفه وما إن أزاح الانطباع النّرجسيّ البغيض عن وجهه حتى حلّ محلّه انطباع سخيف وكارتونيّ بشدّة.

التفتت عليسة ذات اليمين وذات الشّمال تحتجّ بطريقتها على تواصل وضعيّة رقصة السّلُو فانتزع صاحبنا يديه كأنّه يتخلّص

من شيءٍ ساخن ورفعهما في وضع الاستسلام وتسمّر في المكان بينما غادرته عليسة تشبه خطواتها العصبيّة إيقاع نبض رئيس المجمّع الجديد المذهول أو المفتون.

***

سلّم الدّكتور عدنان المصري الرّوح دون الحاجة لبروتوكول الموت الرّحيم فاختلط الأسى بالحيرة داخل المجمّع، كيف سيتمّ الإعلان عن الوفاة بعد تصريح "علوان فلاون" الأخير!

احتلّ طيف الحزن قاعة ابن رشد الّتي جمعت اليوم كافة أعضاء المجمّع، أغلبهم يضعون على جباههم أقراص "الشنجيت الكربوني" فيما قد يكنّى بالتّطيّر العلمي، انتصر الوجوم حتى صرّح خير معوّض قائلًا "القواميس عاجزة عن وصف ما قام به الفقيد وبما أنّ الاختصار مستحيل حين يتعلق بإنجازات عدنان المصري دعونا نتذكرها في كلّ شبر من المجمّع ونكرّم جثمانه بجنازة وطنيّة يواكبها الشّعب منذ البداية حتى يُوارى الثّرى في مقبرة الجلاز"

وقف الدّكتور هاشمي وصدح: "لكن الدكتور أوصى بأن يُدفن داخل المجمّع! يجب أن نحترم وصيّته ولا ننقاد خلف خزعبلات نظريّة المؤامرة وإلا تحكّم الوهم في كلّ شيء"

عمّ التململ داخل القاعة حتّى قاطعه الرّئيس الجديد "لقد قام الأخصّائيّون النّفسيّون والاجتماعيّون بدراسة ردّة فعل الشّعب المغاربي وقد حذّروا من الطّوفان، للأسف سجّل فلاون الدّاهية انتصارًا بالضّربة القاضية هذه المرّة ونحن سوف نحاول قدر الإمكان التّخفيف من تداعياتِها ولو كان الدّكتور عدنان قادرًا على التّخاطر معنا من مكانه لاختار الحلّ العقلانيّ كعادته على حساب رغبته"

بعد أن انفضّ الاجتماع أعلن المجمّع عن وفاة رئيسه عبر إذاعته الرّسميّة "إذاعة علميّة" ورغم أن جهاد صرّح بأنّ فلاون استغلّ معلومة مسرّبة وبأنّ الجنازة سوف تكون وطنيّة وبأنّ جثمان الفقيد سوف يحمل مكشوف الوجه على الأعناق، امتلأت مواقع التّواصل الاجتماعي بالغضب والسّخرية والتّكذيب وساهم الذّباب الأزرق الّذي أطلقه لادن في تعميق الأزمة وفي نشر نظريّات غريبة أشهرها

أنّ الجثمان هو لدكتور عدنان مستنسخ وهي النّظريّة الّتي تبنّتها الجامعة العامّة للتّنمية المستدامة.

اتّهم جهاد السّيّد فلاون بتلويث الوعي وتحريف المنطق وإفساد العقول والنّفوس إلّا ما رجعة عبر جميع وسائل الإعلام ثمّ اتّصل به رسميًا عبر رسالة إلكترونيّة مختومة بعبارة "سريّ جدًّا" لكنّ الأخير لم يحترم بروتوكولات وأخلاقيات الاتّصال والتواصل وشارك مضمون الرّسالة عبر مواقع التّواصل الاجتماعيّ ثمّ أعلن بأنّه متأكّد بأنّه سوف يتعرّض للاغتيال بطريقة مبتكرة عبر أجهزة علميّة، السّريّة المتغلغلة على حدّ قوله في جميع مفاصل الدّولة.

***

–عليسة، هل وجدت أيّ شيءٍ جديد يخصّ لادن!

–أظنّ أنّك لم تعد تشكّ في العلاقة الحتميّة بين لادن وفلاون.

–كلّا ما زلت لا أعتقد ذلك، من أسوأ الأشياء ربط الأمور دون دليل قاطع، في السّاعة الرّاهنة أعتقد أنّ المسألة لا تتجاوز "عدوّ عدوِّي صديق لي إلى أن يأتيَ ما يخالف ذلك، كلاهما يؤمن بالفوضى

كمرحلة أولى وهما الآن يشربان نخبها سويًّا، ليس لديّ شكّ في ذلك لكنّني أعتقد أن شهر العسل بينهما سوف ينتهي بنهايتنا وهي للأسف مؤكّدة، يجب أن نقبل الهزيمة وندخل في مرحلة سبات بنّاء نعدّ أنفسنا خلالها لما بعد الفوضى...

***

مازالت قرية بني عامره العامرة بالسكان ترفض الانضمام إلى المغرب العربيّ الموحّد. توفّيَ أكثر من 6٪ من نساء القرية السّنة الفارطة بسبب سرطان الثّدي ورغم أن مجمّع علميّة وفّر لهم اللّقاح وفرصة العلاج بالمجّان فقد رفض الزّعيم أبو عبيد التّارجي مساعدة من يسمّيهم بالخرشف واللّاأدريّين والقردة. قرّر الأخير بعد استشارة المعالجين "الرّعوانيّين" بتر جميع أثداء النساء. عمّت حالة من الهلع وحاولت بعضهنّ تسلّق أكداس الخردة التي عيّنت حدود المكان والهرب إلى الجزائر ولكن هيهات! القرية مطوّقة كذلك بإحكام برجال الشّيخ التّارجي الأوفياء. القانون الجديد كان واضحًا وصارمًا.. كلّ فتاة تبلغ الثّالثة عشرة يقع بتر ثدييها مباشرة.

حتّى سي فلاون زعيم جامعة التّنمية المستدامة تكلّم عبر الإذاعات وعبّر عن استهجانه وامتعاضه ممّا اصطلح عليه بالتّخلّف المقرف والجرم في حقّ النّساء وطالب الشّيخ بأن يقبل بمساعدة المجمّع، قبل أن ينفعل كعادته ويصف التّارجي بالمخبول والمهووس. ردّ له الشّيخ الصّاع صاعين واعتبره مجرد "كمبرس" في مسرحية مفضوحة يديرها المجمّع باقتدار.

بعد المناوشة بأسبوع هزّ انفجار هائل مقر الجامعة العامّة للتّنمية المستدامة ومن ألطاف الله أن المبنى كان فارغًا زمن اللّيل. كان الشّيخ أبو عبيد التّارجي بمثابة قدّيس في مذهبه الجديد "أهل الاستقامة" وكان له من الأوفياء في نابل وعنّابة ومكناس العشرات أو ربّما المئات ورغم أنّ الأخير تبرّأ من الاعتداء وشجبه بشدّة كما وصف منفِّذه بالجبان إلا أنّ أتباعه في فضاءات التّواصل الاجتماعيّ احتفلوا واعتبروا أنّ الانفجار ليس سوى انتقام إلهيّ لنصرة الشّيخ المبارك.

بعد الحادثة كثرت النّظريّات وصار الجميع يتّهم الجميع بينما كان جهاد على يقين بأنّ لادن هو المسؤول الأوّل والأخير عن

الانفجار بطريقة ما، كان يلعنه جهرًا عندما اقتحمت المكان فتاة بشعر أخضرَ قصيرٍ جدًّا وبزّة فريق اتّحاد العاصمة الجزائري للكرة الطّائرة، ذُهل عندما اكتشف أنّ الفاتنة الّتي أمامه ليست سوى زميلته اللّدودة عليسة المسكيني، هنّأها على اللّوك الجديد بديبلوماسيّة بعد أن كفر استغرابه ببراعة خلف ابتسامة مبتكرة ثمّ قال: «ما رأيك فيما يحصل يا زميلة!؟"

–لست هنا لمناقشة أيّ شيء، بل أريد إجازة على الفور.

–إجازة في هذا الظرف!؟ سوف أظلمك لو منحتك إيّاها.. الصحفيّون يترصدون عثرتك والنّاس_

–لا يهمني!

–سمعة المجمّع على المحكّ يا زميلة

–سمعة المجمّع، رأي الصحفيّين، العمل يحتاجك إلى كذا.. لن تنتهي هذه الأشياء بعد غد. الأزمة دائمة ومستمرّة حتّى يرث الخالق ما خلق

اندفع جهاد نحوها كمصارع لكنّه استعمل فراملة في الوقت المناسب، توقّف وغمر أصابعها الطويلة بيديه الكبيرتين ورمقها بنظرة الكلب الصّغير الوديع الّتي لا تقاوم ثمّ اعترف قائلًا: "عندما ستذهبين سيصبح المجمّع بدون قلب نابض ولا رئتين ثمّ إنّ عقلي سوف ينشغل بغيابك عن جميع الأمور الهامّة"

بووووووم

تزلزلت الدّنيا تحت قدميهما قبل أن تتناثر الأشياء في الهواء، شظايا بلّور ومستندات وقطع أثاث طائرة. غمر الغبار كلّ شيء على وقع انفجار عظيم.

قرّرت أن أنهي المهزلة الافتراضيّة بكبسة زرّ بووووم، كلّما ابتكرت عالمًا افتراضيًّا جديدًا ذا أحجيات وعراقيلَ وتركت الحريّة للشّخصيّات في تقرير مصيرها إلّا وانتصر الدّوغمائيّون المتآزرون، لقد سئمت هذه اللّعبة.

أُدعى لادن